

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل : " السمع والطاعة " ..لأول مرة كاملاً ..

من كتاب : " من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث " ..

تأليف الشيخ / محمد الغزالي

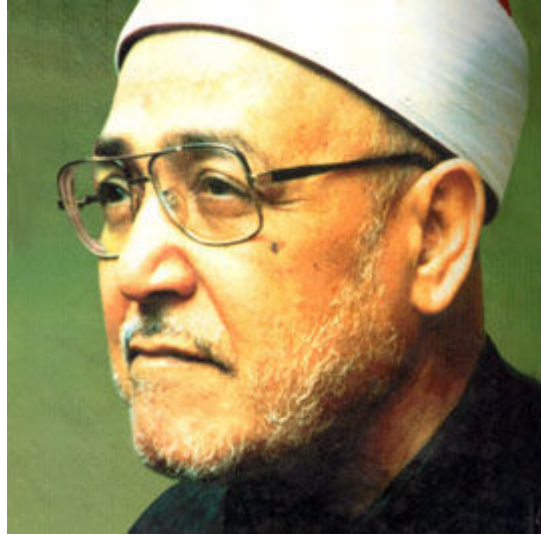
الطبعة الثالثة

ديسمبر ١٩٦٣ م = ١٣٨٢ هـ

الناشر : دار الكتب الحديثة

لصاحبها : توفيق عفيفي

١٤ شارع الجمهورية بالقاهرة



[ - ١ - ]

من إمارات الإحكام في شئون الجماعة والدولة، أن تنتقل الأوامر من الرؤساء إلى الأطراف، كما ينتقل التيار من المولد الكبير إلى الأسلاك الممتدة، فلا يقطع نوره خلل ولا يرد قوته قطع أو خبل.  
إن الجسم المعافى تستجيب أعضاؤه (للإرادة) التي تنقلها الأعصاب من الدماغ المفكر فيتحرك أو يسكن وفقها.

ولن تعجز الإرادة عن بلوغ أهدافها إلا إذا اعتل الجسم، وأصيبت أجهزته بالعجز والشلل.

والمجتمع الصحيح كالجسم الصحيح يشد كيانه جهاز دقيق ، ويضبط أموره نظام محكم، وتتعاون ملكاته العليا وقواه المنفذة تعاوناً وثيقاً يسير به في أداء رسالته كما تسير الساعة في حساب الزمن.

وقد وضع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الله عليه وسلم — قاعدة هذا النظام المتجاوب وجعل القيام عليه من معالم التقوى، فإنه لن يستقر حكم ولن تُصان دولة إلا إذا سادتها الطاعة والنظام .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي " .  
وقال الله عز وجل : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ أي اتبعوا كتابه . ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أي خذوا بسنته . ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ أي فيما كلفوكم به من أمور تخدم الكتاب والسنة .

وطبيعة الحياة عندما فرضت خضوع الجسم للعقل إنما بنت هذا لمصلحة الجسم والعقل جميعاً، على أساس أن العقل لن يصدر عنه ما يضر الجسم أو يؤدي به إلى التهلكة.

فإذا استحمق امرؤ وشرع يخلط، حجرنا عليه فوراً، إنقاذاً له من شر نفسه، وإنقاذاً للجماعة منه..

كذلك اطردت فطرة الله في شئون الحياة كلها.

فقوانين السمع والطاعة التي سنّها الإسلام، بل التي وضعها نظم أخرى وطبقها بصرامة ، لم يُقصد بها إلا حفظ المصلحة العليا للجماعة، فكأنما أملت بها غريزة البقاء وضرورة الحياة.

ولا مجال البتة لجعلها متنفس هوى جامح أو شهوة عارضة.

وعندما سُرع قانون السمع والطاعة لم يفترض في الأطراف التي تمثله إلا قيادة راشدة تنطق بالحكمة وتصدع بالحق وتأمّر بالخير، ثم جنود يلبون النداء ويمنعون العوائق ويتممون الخطوة.

وبذلك تنتظم دورة القانون في الأمة كما تنتظم دورة الدم في البدن فتستقيم الحياة وتستقر الأوضاع. أما الطاعة العمياء لا لشيء إلا لأن القائد أمر، وأمره واجب الإنفاذ، فذلك منكر كبير وجهالة فاحشة لا يقرها شرع ولا عقل.

روى الإمام أحمد في مسنده قال : بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار فلما خرجوا وجد عليهم الرجل في شيء — تبرم بسيرتهم معه — فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعوني؟ فاجمعوا إليّ حطبا ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من النار، يعني — فكيف تقادون باسمه إليها —؟ لا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. فرجعوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبروه. فقال لهم: " لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا.. إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ ". " لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا ".

هذا التهيب الغليظ يستأصل جذور الطاعة العمياء من نفوس الأتباع جميعا، ويجعلهم يميلون فيما يصدر إليهم من أوامر، فلا يكونون عبيدا إلا لله ولا جثيا إلا للحق.

إنما استكبر من استكبر من الفراعنة والجبابة لأنهم وجدوا من الرعاع من يسارع إلى إجابة أهوائهم وإطاعة نزواتهم دون بصر أو حذر فعتوا في الأرض وعلوا علوا كبيرا...

ولو أنهم عندما أصدروا أوامر يُميلها الغرور ، وتنكرها الحكمة وجدوا من يردها عليهم ويناقشهم الحساب، لترثوا طويلا قبل أن يأمرُوا بباطل.

والثقة — خصوصا في أهل الدين — تغرس حسن الظن فيما يأتون ويذرون،  
وتجعل المرء يتلقى توجيههم بالقبول الحسن فهو يترل عنده مطمئنا إلى أنه يطيع في  
المعروف .

ونحن لا نلوم إنسانا على نقاوة صدره وليونة طبعه، ولكن المؤمن لا يأذن لأحد  
أن يستغل هذه الصفات النبيلة فيه ليجعل منه شخصا طائش القياد ضرير العين  
والقلب..

وفساد الأديان الأولى جاء من طراوة الأتباع في أيدي رؤسائهم وتحولهم مع  
مبدأ السمع والطاعة إلى أذنان مُسَيَّرة، لا فكر لها ولا رأي.

روي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾  
قال عدى بن حاتم — معترضا — : إنهم لم يعبدوهم، فقال رسول الله — صلى الله  
عليه وسلم — : بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم فتلك  
عبادتهم إياهم..

فانظر كيف غدت الاستجابة العمياء شركا، وكيف استُغلت الثقة لتغيير أحكام  
الله وإضلال عباده عن الصراط المستقيم.

إن الفراعنة والأباطرة! هوا لأنهم وجدوا جماهير تخدمهم بلا وعي.  
والأحبار والرهبان والبابوات تألهوا كذلك، لأنهم وجدوا رعايا تمنحهم الثقة  
المطلقة وتلغى وجودها الأدبي أمام ما يصدر من أحكام.  
والشعوب التافهة في كل زمان ومكان هي التي تصنع المستبدين وتغريهم  
بالأثرة والجبروت.

وقد بلغ من حق العامة في بعض أدوار التاريخ المصري أن قالوا: الحماية على  
يد فلان خير من الاستقلال على يد فلان!... لو رشح فلان حجرا لانتخبناه...

إن الحب المكين شيء واحترام الحقيقة المجردة شيء آخر.  
ولشعب ما أن يعشق زعيمه وأن يصوغ فيه قصائد غزل.  
بيد أنه لا يسوغ أن يتطور به هذا الحب حتى يحاكم الحقائق إلى شخصه بدل  
أن يحاكم شخصه إلى الحقائق..

ومن قديم عرف المصلحون والأئمة أن السمع والطاعة وسائل لا بد منها لسير الأمور وبلوغ الغايات.

ونحن لا نماري في المبدأ بعد ما شرحنا أصله في صدر حديثنا، وإنما نحذر من الزوائد الخطرة التي تنضاف إليه وتتوسع فيه وتقتل الحقيقة والحرية باسمه. إن الإسلام لم يشرع قانوناً ينتقص من (الاستقلال الشخصي) لأي إنسان أو يغيض من (حريته الفكرية) .

ألم تر إلى موقف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وصحابته في أسرى بدر؟

لقد استشار أصحابه ما يصنع فيهم؟ فما حاول أحدهم أن يتعرف رأيه ليتملكه بتأييده، بل أدلى كل منهم بما يراه الحكم الصحيح في القضية المعروضة، وسار كل وفق طبيعته الخاصة.

الحليم يعرض العفو، والحازم يعرض العقاب، ولا يعيننا أن نعرف هنا من أخطأ أو من أصاب. وفي السيرة شواهد شتى لما كان عليه السلف الأوائل من أصالة نظر، وحرية فكر، مع ما أثر عنهم من حب عميق لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وما أخذ عليهم من موثيق السمع والطاعة.

ونحن نعرف أن بعض الناس لا يحسن التفكير العام، وقد تضم إلى ذلك أنه لو ترك لكل امرئ الحق في مناقشة ما يكلف به لتسربت الفوضى إلى شئون الحكومات والشعوب.

وهذا حق، ولكنه لا يصادم ما نحن بصدد تقريره. إن هناك فرائض لا يجوز خدشها ومحرمات لا تمكن استباحتها، وشئونا أخرى هي مجال للأخذ والرد وتفاوت التقدير.

وهذه لا يملك البت فيها واحد برأسه، وإنما يرفع الخلاف فيها أصحاب الحل والعقد وأهل الشورى..

فإذا مرت بمرتبة البحث والعرض، فلكل ذي رأي أن يظهره وأن يدافع عنه غير منكور ولا محقور...

حتى إذا تمخض الدرس والنقد عن الرأي الذي استقر عليه الإجماع أو جنحت إليه الكثرة، لم يبق مكان لتردد أو ارتياب أو اعتراض.

والحكومات المعاصرة — على اختلاف مذاهبها — تحترم هذه القاعدة. ولعل هذا سر الأفراد والجمع في الآية ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ فالإله واحد والرسول واحد.

أما ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ فهو كثير، وما يقرونه — جماعتهم أو أغلبهم — فهو محل احترام العامة .

وليس ذلك الذي أقره الإسلام في سياسة أمته بدعا تفرد به، فإن أما أخرى أقرت مثله من قبل ومن بعد.

ذلك، وليس كل من غلب على حكم بلد ما يُسمى ولي أمر فيه، تقرن طاعته بطاعة الله ورسوله.

فكم أرمق قرونا من تاريخ الإسلام الرحب وبقاعا من وطنه الكبير فلا أجد ظلا لولاية صحيحة...!

كما أن الشئون التي يعالجها الولاية الموثقون تتفاوت في موضوعها تفاوتاً كبيراً، فشئون الدنيا غير شئون الدين.

وشئون الدين نفسه ليست سواء، فالأصول غير الفروع، والنظري غير العملي.

فقد يختلف أولو الأمر في بناء جسر أو تعلية خزان، وقد تختلف في ذلك معهم لا صلة لهذا الخلاف بطاعة أو معصية. .

وقد يختلفون ويختلف معهم في فقه الصلاة ويلتزم كل منا وجهة نظره... ولا وزن هنا خطأ أو صواب.

ثم إن الرجال الذين يسمون أولي الأمر شرعاً، والشئون التي تُرى طاعتهم فيها ديناً، مما تكلم العلماء في بيانه ورفعوا الغموض عنه .

ولقد عجبت لخلاف وقع بين شباب الإخوان المسلمين آثاره بعضهم بتشاؤم هو: نحن جماعة المسلمين، أم نحن جماعة من المسلمين؟.

والإجابة على هذا السؤال لها نتائج ذات بال.

بل نتائج ترتبط بها صيانة دماء وأموال!.

فإن الذين يحسبون أنفسهم جماعة المسلمين يرون مخالفة الأستاذ حسن الهضيبي ضرباً من مخالفة الله ورسوله، وطريقاً ممهدة إلى النار وبئس القرار!.

وقد كنت أسير مع زميلي الأستاذ سيد سابق قريباً من شعبة المنيل فمر بنا اثنان من أولئك الشباب المفتونين وأبياً إلا إسماعنا رأيهم فينا وهو أننا من أهل جهنم ! .

وصادف ذلك منا ساعة تبسط وضحك فمضينا في طريقنا وقد سقط طنين الكلمة النابية على الثرى قبل أن يتماسك في آذاننا ..

إلا أنني تذكرتُ بعد أيام هذا العداء المر والأوامر التي أوحى به ، فعز عليّ أن يلعب بالإسلام وأبنائه بهذه الطريقة السمجة.

وأن تتجدد سياسة الخوارج مرة أخرى، فيلعن أهل الإيمان ويترك أهل الطغيان. وبم؟.. باسم أن القائد وبطانته هم وحدهم أولو الأمر! وأن لهم حق السمع والطاعة؟ وأن الخارج عليهم يصدق فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية " . وقوله : " من خلع يدا من طاعة لقي الله لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية " .

وهذه الأحاديث وأمثالها وردت في منع الفتوق الجسيمة التي يحدثها الشاغبون على الدولة..

وقد عانى المسلمون وعانت خلافتهم الكبرى أقسى الآلام من ثورات الحانقين والناقمين.

وربما كان سقوط الحكم الإسلامي في الأرض بسبب هذه الانتفاضات الهائلة.. أما أن جماعة أنصار السنة أو جماعة الشبان المسلمين أو جماعة أهل الصُّفة يجزؤون هذه الأحاديث إلى دورهم ويطبّقونها على من يبقى معهم أو يخرج عليهم فهذا جنون .

بيد أن تعليم هذا الجنون كان أسلوب تربية وتجميع عند بعض الناس!!.

فمن المضحك أو المبكي أن يخطب الجمعة في مسجد الروضة عقب فصلنا من المركز العام مَنْ يؤكد أن الولاء للقيادة يكفر السيئات، وأن الخروج عن الجماعة يمحى الفضائل، وأن الذين نابذوا المرشد العام عادوا إلى الجاهلية الأولى لأنهم خلعوا البيعة .. ورئي الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة القاهرة يخلص بالخطيب جانباً ليقول له : أي إسلام هذا؟.

وَمَنْ مِنْ علماء الأولين والآخرين أفتى بهذا اللغو؟ وكيف تلبسون الدين هذا الزى المنكر؟.

وهيهات، فقد تغلغل هذا الضلال في نفوس الناشئة حتى كتب بعضهم لأخ له - من قبل - يسأله : هل تظن نفسك مسلماً بعدما خرجت من هيئة الإخوان؟. ولنفرض أن رئيس الجماعة هو أمير المؤمنين وأن له حقوق الخليفة الأعظم (!) فهل هذا يؤتية على أتباعه حق الطاعة العمياء؟.

إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم يؤت هذا الحق! ففي بيعة النساء يقول الله له ﴿...وَلَا يَعَصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ...﴾.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَمَنْ أَمَرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ لَهُ وَلَا طَاعَةَ "...

وروى مسلم : عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه فقال: كنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في سفر فترلنا متزلاً، فمننا من يصلح خباءه، ومننا من ينتضل، ومننا من هو في جَشَرِهِ (١)، إذ نادى رسول الله : الصلاة جامعة فاجتمعنا إلى رسول الله فقال : « إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ - وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَإِنْ أَمُتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا ، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ تُنْكَرُونَهَا ، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرْفَقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ ، وَتَجِيءُ

(١) الجسر - بفتح الشين - المال يرعى في مكانه لا يرجع إلى أهله ليلاً ؛ والمراد أن بعضهم كان في مرعى ماشيته.



الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ : هَذِهِ .. هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْخِزَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلَتَاتِهِ مَنِيتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ. وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً قَلْبِهِ فَلْيُطْعَمْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ فَإِنْ جَاءَ آخِرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ ».

فَدَنُوتُ مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ : أَنْشُدْكَ اللَّهَ أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ؟ فَأَهْوَى إِلَى أُذُنِيهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ سَمِعْتُهُ أَذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. فَقُلْتُ لَهُ : هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا وَاللَّهُ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾. قَالَ فَسَكَتَ سَاعَةً - لحظة - ثُمَّ قَالَ : أَطِيعُهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ...

سياق الحديث كما ترى في توفير الأمن لحكم قائم، وخليفة مبايع، ومع ذلك فإن عبد الله رأى التمرد على الحاكم فريضة إذا أمر بمعصية، فكيف بالتمرد على رجل من سوقة الناس منح نفسه أو منحه أشياعه سلطانا موهوما!

على أن من الإنصاف لتعاليم الإسلام - ونحن بصدد الكلام عن تغيير الأحكام - أن نذكر القاعدة القائلة: إذا كان تغيير المنكر يؤدي إلى مفسدة أعظم، فالإبقاء عليه أولى، وذلك مصداق قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

والواقع أن الزلازل التي تتبع إسقاط الحكومات قسرا بعيدة المدى. ومن ثم لم يرض الإسلام أن يشهر السيف في وجه حاكم إلا أمام ضرورات ملجئة. أبانها هو ولم يترك بيانها لتقدير أحد.

بل إنه حبب إلى المؤمن التضحية ببعض حقوقه الخاصة إشاعة للاستقرار في أنحاء البلاد، وإغلاقا لمنافذ الفتن. فعن عبادة بن الصامت قال : " بايعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا

وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله - أي نطلب الحكم من ولاته - إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان " . .

إن الأمة التي تُغيّر حكامها كما تغيّر المرأة أزياءها لا تصلح لها حال ، ولا تبقى لها ربح .

وإنني لأمقت أن أكون داعية لحاكم ما، وأستعيز بالله من أن أعين بكلمة على بقاء وال جائر.

غاية ما أبغي أن أشرح قانون السمع والطاعة، وأن أمنع الكهان والدجالين من الاحتيال به على ناشئة قليلة الفقه في الإسلام. إن تغيير حاكم شيء ، والانصراف عن واعظ غير موفق شيء آخر.

لقد كان الراسخون في العلم يدعون إلى الله ويتجردون للدعوة، فكان الناس يرون طاعتهم من طاعة الله لأنهم تلقوا دروس معرفته عنهم.

ثم جاء الراسخون في الجهل يطلبون حقوق القيادة، ويتحدثون عن قانون السمع والطاعة، ولست أعنف دعياً من هؤلاء على مزاعمه ومطالبه. فالأمر كما قيل: "بعض الناس طغاة لأننا نركع لهم".

## [ - ٢ - ]

القول بعصمة الأئمة غير معروف بين جمهور المسلمين من أهل السنة. فمذهبهم أن القائد أو الحاكم يجيء من أي طبقة، وأنه في موضعه العالي من تصريف الأمور يجوز عليه أن يخطئ وأن يصيب.

وأن نصحه - إذا أخطأ كمؤازرته إذا أصاب - واجب على الأمة. بل إن أهل السنة يرون أن النبي صلى الله عليه وسلم على جلالته - قد يخطئ فيما لم يتزل به وحي... ولكن الإرشاد الأعلى يستدرك عليه ويوجه اجتهاده إلى الصواب الذي فاتته.

أما الشيعة فهم يحصرون الخلافة في الأسرة النبوية، ويقولون بتقديس من يتولى منهم شئون المسلمين.

ولست فقيها في مذهب الشيعة.. ورأيي أن الخلاف في سياسة الحكم — عندنا  
معشر المسلمين — سياسي لا عقدي، وأن أركان الإسلام تُظلم عندما يقحم عليها هذا  
الخلاف الذي بدأ تافها ثم استفحل مذ خالطته شهوات الدنيا!.

وأريد أن أعرض هنا المسألة "عصمة أو تقديس القيادة".. فإن القول بعصمة  
واحد من هؤلاء هو عندي خرافة كبيرة.

ومن السُخف أن يطالب عاقل بتصديق هذا الزعم سواء تبجح به رئيس أو  
هرف به مرءوس.

وربما كان الضغط الذي صادفه التشيع أول أمره سر انتشار هذه الكلمة، فقد  
استبد الأمويون والعباسيون بالحكم دهرًا طويلاً، وضيقوا الخناق على معارضيتهم حتى  
جعلوهم يحيون في جو من الوجل والتوجس .

والأحزاب المناوئة للحاكم عندما تفقد نعمة العلانية في التنفيس عن رغباتها،  
والإبانة عن مقاصدها وغاياتها، لا ترى بدا من جمع فلولها في الظلام ونشر تعاليمها في  
شكل رسائل أو منشورات مقتضبة حاسمة...

وقد كان طلاب الخلافة من ذرية علي يعيشون في هذا الخفاء المسحور،  
وينالون من الحب بقدر ما يناله الحاكم من سخط.

وربما كان بعضهم أعف نفساً وأصدق قِيلاً من أمراء أمية والعباس فهو يرى في  
مناوشته الحاكم وإسقاطه خدمة للإسلام قبل أن يكون خدمة لنفسه...

والوسيلة الوحيدة هي المقاومة السرية، حيث يتلقى الأتباع الأوامر الصادرة  
من فوق على أنها نصوص واجبة الطاعة، لا مجال ألبته لمناقشتها أو التملص منها، لا...  
إن شيئاً من هذا لا يجول بخاطر واحد من الأتباع! فإن تنفيذ هذه الأوامر دين تقبل  
عليه النفس بلذة وشغف، ولو كانت عقباه العطوب...!

وفي هذه الدائرة المغلقة تتحول الثقة في القيادة إلى قول بعصمة الأئمة...

ذلك أن مرور الزمن على هذا الكبت يُحور الصلة بين الأتباع المضطهدين  
وسادتهم المختفين حتى تنتهي إلى هذا المصير.

وخطورة هذا الضرب من المعارضة المستخفية أنه البيئة الخصبة لنمو الأوهام والأساطير.

وأظن أن الفرق الكثيرة التي نهشت جوهر الإسلام — من باطنية وقرامطة وغيرهم — لم تتولد إلا في هذه البيئة...

إن الأوامر التي يصدرها أشخاص فقدوا قوة العمل في النور قلما تخضع لتمحيص المنطق وتحقيق الشورى..

حتى بعد أن تواتيهم السلطة وقيموا حكما يرعى أمور الناس في وضوح النهار.. وهكذا ينتقل مبدأ تقديس الزعامة من صفوف المعارضة إلى صفوف الحكم نفسه، والإسلام بريء من هذا كله...

وقد رأيت جمعا غفيرا من شباب المسلمين ينظرون إلى " مرشدهم " نظرة يجب أن تُدرس وأن تُحذر..

قال أحدهم في اجتماع ضخم للهيئة التأسيسية : إن المرشد لا يخطئ ، وكان بهذه القولة العجيبة يريد أن يخذلني وأنا أعارض المرشد في بعض تصرفه ن وقد خُذلت فعلا ، ومُزّقت ملابس الرجل الذي وقف يُناصرني..

ومع أن كلمة " المرشد لا يخطئ " وجدت امتعاضا من أغلب الأعضاء .. ، إلا أنه امتعاض المذنب عندما يواجه بجريرة لا يجد منها فكاكا.. ويكره أن تلتصق به، لظهور معرّتها...

والقوم يخلطون بين توقيير القائد وتوفير المهابة له... وبين الخنوع لرأيه والمسارعة في هواه...

إن أول ما نشب الخلاف بيننا وبين المرشد العام كان على أسلوب الحكم في مصر هل تُكفل الحريات العامة ويُصان الدستور القائم وتُنقذ البلاد من استبداد فرد أو أفراد ؟! أم نتجاهل هذا الموضوع كله ويُطوى حكم الإسلام فيه وتشتغل جماعة الإخوان بشئون أخرى ؟.

كان الرجل شديد الحرص على مرضاة المستبدين قليل الاكتراث بحقوق الأفراد والطوائف .وقد ألفت كتابي " الإسلام والاستبداد السياسي " استنكاراً لهذه السياسة القاصرة. ودفاعاً عن تعاليم الإسلام الصحيحة.

ولعل الأستاذ الهضيبي ومن معه عرفوا الآن الحق الذي خاصمناهم عليه وكرهونا من أجله .

قال لي ذات يوم واحد من أقرب رجال المرشد إليه : إن الإيمان بالقائد جزء من الإيمان بالدعوة. ألا ترى أن الله ضم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بذاته جل شأنه ؟ ذلك أن المظهر العملي للطاعة والأسوة هو في اتباع القائد اتباعاً مطلقاً...!!

ثم استدرك محدثي يقول : لا أعنى بهذا أن أسوي بين المرشد والرسول في حقيقة الطاعة، إنما أقصد دعم مشاعر الولاء نحو الرجل الذي يحمل راية الدعوة، فأنا أضرب مثلاً فحسب !!.

وبمثل هذا الأسلوب رسم يجري بين المعاملة بين مرشد الإخوان والجماعة فلما استغربناه وتأيينا عليه ، ورأينا أنفسنا نبصر الحقائق القريبة والرجل لا يحسبها ..ونعامله مخطئاً أو مُصيّباً غير مُقرين هذه الهالة المزورة التي أضفاها الأغرار عليه ؛

مقتنا الرجل أشد المقت ، مقتنا كما يمقت الكفار والفُساق!! ..

ثم سار بمن معه يتقحم العثرات والمزالق لا يلوي على شيء، ولا يُلام على شيء.

وأعرف أن نفراً من العباقره ظهروا في ألمانيا وإيطاليا ومصر والهند أوتوا من المواهب الخارقة ما جرفوا به جماهير العامة واستهوا به الخاصة .

وكانت آراؤهم تعصف بما عداها ،وأشخاصهم تطوي الأصدقاء وتكسح الخصوم .

وهؤلاء الزعماء الكبار لا تضبط صلاتهم بأتباعهم — على هذا النحو — تعاليم الإسلام، فلا هم عرفوا ولا هم تقيدوا بها. إن الأقدار قد تسليح بعض الناس بقوى أشبه بقوى القاطرة التي تجر وراءها ألف عربة، وإذا كانت شعوب بأسرها يطويها

الإعجاب بقائد ما، فتتشق حناجرها بالهتاف له، وتملكها عقلية القطيع في السير وراءه، فذاك أمر يصح أن تُدرس علله ونتائجه على ضوء التاريخ القديم والحديث.

أما الشيء الذي تحار البرية فيه فهو إطباق قبيل من الناس على تقديس شخص ليست لديه ذرة من خصائص الأعمام، أينما تُوجهه لا يأت بخير.

وفي حُمى هذه الطاعة العمياء وقعت أمور يجب أن يُكشف الستار عنها..

كانت المنشورات السرية تصدر حاملة أوامر القيادة الخفية ، وكانت هناك منشورات أخرى توزعها مراكز التجسس الاستعماري ..وتسيرها في الجرى نفسه التي تسير فيه المنشورات الأولى .. وكان عبيد الولاء يحترمون هذه وتلك ويتعصبون لها جميعا.!! .

وفي إبان الخصومة القائمة بين المرشد العام وبين الحكومة القائمة نفذ المصطادون في الماء العكر إلى داخل القطر ، فاستطاع المخربون اليهود أن ينسفوا جسراً في منطقة القناة ، تعكيراً للأمن وتعويقاً للجللاء.

والغريب أن نفراً من عبيد الولاء ظن هذه الحركة بداية جهاد ضد الانكليز (!) جهاد عملي يقوده المرشد نفسه (!) فرحّب بهذه الأعمال ..!!..

إن بركات الطاعة العمياء لا آخر لها، وأولها أنها تصدق في أصحابها قول

القائل:

لا يبلغ الأعداء من جاهل \*\*\* ما يبلغ الجاهل من نفسه

إنني أرجع بذهني إلى الأيام التي استجاب فيها السيد حسن الهضيبي ليقود الإخوان المسلمين ..فأستشعر الحسرة لأن المنطق الوثني في تقدير الناس هو الذي هيمن على الموقف كله ، والأجهزة السرية العاملة في الظلام هي التي سُخرت تسخيراً لإتمام المأساة ..

لو كان المفروض أن يقود أهل الجهاد والعلم والدراية والتوجيه لوجد من هؤلاء كثير في صفوف الإخوان .. لكن أصحاب هذه المؤهلات معروفون يتحدث الناس إليهم ويأخذون منهم ويردون عليهم.

والقائد كذلك - وما ينبغي له - (!) ينبغي أن يكون شيئاً تشرئبُ إليه الأعناق ، وتخضع عنده النفوس .. أجل .. ينبغي أن يكون صنماً حياً يأمر فيطاع ، ويأتي إليه الأشياع ليتمسحوا به ويطوفوا حوله ..

إذاً فليكن المرشد رجلاً غريباً عن الجماعة ! وقلت : أما نتخير رجلاً له فضل علم وتربية ، ليأخذ بنواصي الإخوان إلى الخير ؟ فصاح ناظر مدرسة إلزامية - يردّ عليّ وهو يظن أنني أشرح أحد أصدقائي من علماء الأزهر - فقال فضّ الله فاه : إننا سنعطي شهادة العالمية لرجلنا هذا !!!..

وسقطت قيادة الإخوان المسلمين في أيدي رجال يمنحهم أتباعهم شهادات المعرفة والفقه ، لأن الوثنية في تقويم الأشخاص هي التي سيطرت على الموقف.. فلما أخذت شئون الدعوة تتدحرج وتقبط من دارك إلى درك ، وشرع أولو الرأي والغيرة يتدارسون الحلول المستطاعة لإخراج الجماعة من ورطتها، فجاء شاب مسكين - من عبيد الولاء - إلى رجل له في ميدان الدعوة عشرون عاماً ن جاء يقول له : أتريد أن تكون مرشداً ؟ أتريد أن تنازع فلاناً منصبه العتيق؟ زوسكت الداعية القديم لحظة ثم قال : أما أستطيع أن أضع قدماً على أخرى وأنظر إليكم شزراً؟ .. أما أستطيع أن أجلس أبكم ؛ فإذا سُئلت أجبتُ بعد لأيٍ بحروف لا معنى لها؟ . أليست هذه خصائص العظمة التي جعلتكم تدينون لفلان هذا بالطاعة ، فترعد أنوفكم إذا مس قداسته خفيف الريح؟.

لقد عرفنا كيف كانت الجاهلية الأولى تصنع الأوثان ثم تعبدها؟ نعم ربما وهي التي صنعتها بيديها..!!!.

وكما ينسب الفلاحون في ريفنا طائفة من الكرامات الخارقة إلى أصحاب القبور المدفونين في قراهم، أخذ المضللون من الإخوان يشيدون بكفايات المرشد الجديد.. فإذا اصطاف بالإسكندرية قالوا: يتعهد الدعوة في الشغل!

وإذا ذهب إلى لبنان \_لأن هواءها أنقى\_ قالوا: يحرس قضايا العرب ويشجع المرابطين في القدس تجاه اليهود (!) وإذا وصل إلى جدة قالوا: حج واعتمر!! وإذا لفقت له خطبة فطاف العواصم والدساكر بها قالوا: سحر الناس بمنطقه وبلاغته.. وإذا

اختفى عن العيون قالوا: أوى إلى الغار كما اختفى النبي صلى الله عليه وسلم عن أعين الكفار..

وطبيعي أن رجلاً من هذا الطراز المخطوظ لن يضمّر في نفسه إلا التنقص لكل ذي مكانة أو قدرة في جماعة الإخوان المسلمين.

ذلك أنه لم يأت عن تقدير للسبق والوفاء وبعد الهمة وعموم النفع فكيف يقدر صفات لم ينظر إليها قط عند استجلابه؟<sup>(٢)</sup> .

وعقدة الضعة تجعل صاحبها لا يكتفي بتخطي من هم أكفأ منه، بل إنه يسعد بتحطيمهم، ويُسرّ إذ يقدر على إقصائهم وإطفائهم.

لقد جاء حسن الهضيبي \_وهو أحدث الناس عهداً بدعوة الإخوان المسلمين\_ فأراد أن يكون أقدم الناس فيها... بإخراج غيره.. وجاء **قزماً بين عمالقة، فشاء أن يكون عملاقاً بين أقزام...!!**

ونظرنا إلى هذا الخلل الفظيع في مقاييس الخير عندنا، فعلمنا أن سوف نُحرّم من رعاية الله أبداً إذا قررناه.. وزاد من حساسيتنا به أن الشبان الذين كثرُوا في قاعدة الجماعة اضطربت أفكارهم وأحكامهم حتى خيّلَ إلى بعضهم أن يزن أقدارنا بمدى رضا المرشد عنا، ومدى ولائنا له!!

أما الخطأ والصواب، أما العقم والإنتاج، أما النكوص والشجاعة، بل قل: أما العلم والجهل.. فتلك أمور لا يُلتفت إليها في تقديم وتأخير...

وعفاء على أمة تستقر فيها تلك المهازل.. إن البقاء فيها مضيعة للوقت ومنقصة للدين!

أشقى به غرساً؟ وأجنيه ذلة؟\*\* إذن فاتّباع الجهل قد كان أحزماً!!

إن هناك حالة واحدة فحسب ، هي التي يُعدُّ فيها الأستاذ المرشد العام بطل الأبطال ، وقائد النساء والرجال .. تلك أن تفشل الثورة ضد النظام الملكي .. والعهد الإقطاعي ، ويعود فاروق والباشوات مرة أخرى إلى حكم البلاد..

---

(2) في هذه الصفحات مرارة تبلغ حد القسوة، وكان يجب ألا يتأذى الغضب إلى هذا المدى ن بيد أن ذلك - للأسف -

ما حدث ، وقد عاد المؤلف إلى نفسه بحاسنها في حديث أثبتته آخر هذا الباب!..



يومئذ .. توضع العصاة الغراء على رأس المرشد الحاقد على الثائرين، الوفي لساتته الأقدمين.

وقد يُجعل شيخاً للأزهر إلى جانب استبقائه مدى الحياة رئيساً للإخوان المسلمين.

ويتبع هذا - بداهةً - أن تُصَبَّ علينا اللعنات ، نحن الذين ظللنا سنين طويلة نحارب الملوك وفسادهم واستبدادهم ، ونحارب المترفين وفسوقهم ومظالمهم.. فلما سقطوا - بعد ما كتبنا ضدهم مئات المقالات ، وألقينا ضدهم مئات المحاضرات - شئت الأقدار أن يقع زمام جماعتنا في يد رجل يحرق هذه الغراس كلها، ويحرمنا جناها، ويخوض باسم الإسلام المظلوم المفترى عليه معركة يريد بها إعادة الوثنية السياسية الأولى.. وهو - إن نجح أو فشل - يصيب الإسلام في مقاتله، ويجر عليه الولايات.

ولكني - مرة أخرى - أرجع باللوم على القطيع المُسَيَّر.

إن حسن النية لا يشفع في الاستجابة لأصحاب الأهواء المغرضين والخبثاء.

وقد نعى القرآن على قوم أغلقوا عقولهم على رأي فلم يفهموا سواه ولم يفكروا فيما عداه، زاعمين أن الخير فيه وحده، فقال فيهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾.

كذلك حسبوا - وهم ما أحسنوا ولا قاربوا - فلم يُعذروا بحسن النية، بعدما جمدت عقولهم على الخرافات وأغلقوا آذانهم دون الناصحين المخلصين.

كتب زميلي الأستاذ زكريا إبراهيم الزوكة - يصف اجتماعاً من أخطر الاجتماعات التي عقدها الإخوان ليتدبروا موقفهم بعد اختفاء "المرشد" وتوتر الصلات بين بعض الجماعة وبعضها الآخر - فقال:

شهدت اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير فرأيت ما يُغَيِّثِي النفس ويبهت الحق ويدع الحليم حيران.. شهدت من يكذب الكذبة الهائلة فإذا قام بعض الشهود ليصححوا له قوله. ويشهدوا بما رأوا وسمعوا.. أُسكتوا بالقوة. واستُعين عليهم

بأشخاص لا عقل لهم ولا خلق. وإنما أتى بهم ليمثلوا دور الهتافين والمهرجين في اجتماعات الأحزاب البائدة..

وشهدتُ رجلاً كان يهاجم الأستاذ البنا رحمه الله في الهيئة التأسيسية مهاجمة عنيفة ويخاطبه بما لا يليق من الألفاظ . فلما ثار عليه الإخوان غضب الإمام الشهيد في وجه الغاضبين حتى لقد أخرج بعضهم ، ثم أقبل مبتسماً على هذا المهاجم المتجني ، وقال له : قُل ما شئت وانقدي كما ترى ، فلن تُقَاطع بعد ذلك. ولعلي أجد في قولك ما أصلح به خطأ أو أقوم به معوجاً ...

شهدتُ هذا الرجل نفسه في اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير يثور ويفور ويكاد يتميز من الغيظ؛ لأن أخاً قام ينتقد بعض ما يراه مائلاً من أوضاع الجماعة. فقلت : يا عجباً كيف يُحرّم هذا الأخ على غيره ما كان يستبيحه لنفسه؟! فسمعت من يهمس في أذني بالجواب ويقول : لأن المرشد الجديد كان قد رشّحه وزيراً ؛ فهو يدافع عن الوزارة المحبوبة ، لا عن الحق الفقير.

وشهدتُ أخاً فاضلاً كان ينتقد تصرفات المرشد الحالي انتقاداً مُراً، ويصفه في مجالسه الخاصة والمجالس التي يشهدها بما لم يصفه به الغزالي أو صالح عثماوي.

فإذا هو في اجتماع الهيئة يدافع عن هذا المرشد نفسه دفاع الأبطال، ويحاول - في عصبية- أن ينفي عنه كل شبهة ويدراً كل نقيصة..

فسألت في دهشة: أتغير المرشد أم تغير هذا الأخ؟

ف قيل لي : بل تغير هذا الأخ، كان غاضباً قبل اليوم لأنهم افتاتوا على منصبه في الدعوة ووضعوا فيه أحد المقربين.. ثم بُدِّلَ الحال غير الحال وأصبح الصفي المقرب مغضوباً عليه فرأى صاحبنا القديم أن الفرصة سنحت وأنه وشيك أن يسترد مكانته إن هو انحنى واستدار ونظر إلى العيوب والأخطاء بعين الرضا لا بعين الإنصاف....

وشهدتُ رجلاً يفتي في دين الله بغير علم ولا هُدى ولا كتاب منير ، فلما قيل له : اتق الله! أخذته العزة بالإثم وكاد - في فورة الحماس - أن يرفع العصا في يده ويقول : إن شئتم برهاناً فهذا برهاني .

وشهدت إخواناً من الشباب - لم يهدم علم ولم تصقلهم تجربة- شهدتهم يقفون على رؤوس المعارضين بعيون يتطاير منها الشرر ويريدون التحرش بكل من يريد أن يدلي بالحق ويقيم الشهادة لله..

حتى لقد همس في أذني أحد الإخوان الفضلاء من ذوي السبق والمكانة وقال: كم أود أن أتكلم ، فقلت له - وأنا أبتسم- وما يمنعك ؟، قال: أخشى أن يجهل عليّ هذا. وأشار إلى واحد من هؤلاء الحراس.

هذا بعض ما شهدت من المضحكات المبكيات في اجتماع الهيئة التأسيسية. ولقد غادرت الاجتماع قبل أن يبلغ مداه، وأنا أكاد أقطر أسفاً لأن هؤلاء هم الذين يريدون أن يقودوا الإسلام في أعصب أيامه وأشد ميادين حرجاً.. هؤلاء هم الرجال الذين ناصبونا العداوة ، وارتأوا فصلنا من الجماعة ؛ بل إبعادنا عن الإسلام نفسه.

فانظر ماذا كنا نقول لهم ، وبماذا ناشدنا ضمير كل ذي ضمير فيهم. أيها <sup>(3)</sup> الأخ المسلم :

لا نريد أن تأخذ كلامنا قضية مسلمة، ولا أن تقبل كلام غيرنا دون مناقشة وتدبر ، ابحث عن الحق، واجتهد في الوصول إليه، فإذا عرفته فاعرف الرجال على ضوءه، وصادقهم أو خاصمهم على أساسه .

إن المسلم الصادق هو الذي يعرف الرجال بالحق، أما أولئك الذين يعرفون الحق بالرجال ويثقون في أي كلام يلقي إليهم لأنه صادر عن فلان أو فلان، فهم أبعد الناس من فهم الإسلام، بل هم آخر من يقدم للإسلام خيراً أو يحرز له نصراً... وافقه أيها الأخ كلمة الإمام مالك ابن أنس : " كل امرئ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام " (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم).

ثم إن من الخطأ الكبير أن تُحسب الأحداث الأخيرة في محيط الإخوان المسلمين قضية أشخاص فصلوا عن جور مُتعمد أو عن تصرف سيء.. كلا ، فقضية الدعوة الكبرى هي التي تعيننا أولاً وآخرًا .

---

(3) من نداء أذعناه عقب فصلنا.

هل ستترك الأيدي الخفية تلعب بزمام الحركة الإسلامية الكبيرة وتشل نشاطها في ميادين الحياة كما وقع منذ ثلاث سنوات ؟.

هل من الضروري أن يحمل الإسلام سنين طويلة أوزار قيادة واهنة مربكة تستر ضعفها بالاستبداد، ونكوصها بالمكر السيئ؟ ولحساب من هذا كله؟؟

إن الأستاذ حسن الهضيبي كان ألين الناس مع الأحزاب التي قتلت حسن البناء، كان يدعو جهاراً إلى مصالحتهم ونسيان الماضي...!!

لكن هذه الليونة تحولت مع الإخوان إلى بطش وتنكيل، تبعثها حرب شعواء من المفتريات التي تتلمس للأبرياء العيوب وتدار بدهاء لتجعل الظلم عدلاً... وهيئات.

إننا نعرض صحيفتنا ونسوق الوقائع كما حدثت وندع لذوي الأبصار النيرة والضمائر الحية أن يحكموا .. لنا أو علينا ...!!

نعم ، لنا أو علينا !! فنحن نرتضي مواقف المفكرين المنصفين وإن كانت ضدنا. أما الذين يُغلقون آذانهم على ما قيل لهم ، ولا يقبلون سواه ، فنحن نرفض حكمهم ولو كان لنا ...!!

إن شرف دعوتك العظيمة في ألأما صدى للإسلام، وصورة كاملة لتعاليمه الراشدة.

- فاعلم أن الإسلام بني على الوضوح والثقة والتعقل.
- ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.
- ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.
- فإرفض الغموض في رسالتك واحذر قبول الريبة باسم السمع والطاعة.
- فالطاعة في المعروف، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " دَعْ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ " .

- ولا تتعصب إلا لما تعقل وتؤمن، فإن التسليم للأوهام بعض طقوس **الماسونية** في هذا العصر، وبعض طقوس الكنيسة في العصور الوسطى المظلمة.
- أما الإسلام فبريء من هذه المسالك المحدثه.

إن قيادة الإخوان الآن حريصة على الأوضاع الغامضة والقرارات المريبة الجائرة.

وهي مسئولة أمام الله والناس عن مشاعر الحيرة والبلبلة التي تغمر قلوب الإخوان في كل مكان.

ثم هي مسئولة - من قبل ومن بعد- عن الخسائر التي أصابت الحركة الإسلامية في هذا العصر.

وعن التهم الشنيعة التي توجه للإسلام من خصومه المتربصين..  
فقد صورته نزوات فرد متحكم، كما صورت هيئة الإخوان المسلمين وكأنها حزب من الأحزاب المنحلة تسودها الدسائس وتسيرها الأهواء.  
وقد أعذرنا بهذا البيان.

وسوف نبقى في أوضاعنا ندفع عن الإسلام شرور أعدائه السافرين والدخلاء حتى تنجلي الغمة ويفرح المؤمنون بنصر الله.

إن هذه المناشدة الحارة لم تجد صداها الواجب .  
كان الجمهور المخدوع كالزجاجات المعبئة إلى نهايتها لا تقبل جديداً ولا مزيداً..

فرأينا أن نسير وحدنا بعد أن أفرغنا جهدنا.  
وما دار بخواطرننا أن القدر يحب في طياته هذه الأحزان الطويلة للقاصرين البائسين.

[ - ٣ - ] (٤)

نعلم أن الإسلام أول أمره اشتبك مع اليهود في حرب ضروس .. لم تضع أوزارها حتى انكسرت شوكتهم وكتب عليهم الجلاء، فاخفت جماعتهم من جزيرة العرب واطمحت قواهم أمام امتداد الإسلام في المشرق والمغرب. لكن اليهود الذين منوا بالهزيمة النامة في ميدان القتال... وأعجزهم عن أن يصيروه بأقل أذى في ساحة

---

(٤) نُشر هذا المقال سنة ١٢٧٣ هـ .. قبل عام من المحاكمات التي وقعت أخيراً .

مكشوفة واضحة.. انفلتوا يكيدون له في ميدان آخر فاستطاعوا أن يلحقوا به متاعب  
جمة.. ما زال من أربعة عشر قرناً مضت يعالج جراحها إلى اليوم..!

دسوا وسط الجماعة المسلمة من يؤرث نار الفتنة ويلبس على المسلمين أمر  
دينهم ودنياهم، فإذا الفكر الإسلامي تشوبه الخرافة، وإذا الإسرائيليات تمتزج بمنايع  
ثقافتنا وتغزو عقول العوام وتعوج بسير الإسلام وسط أهله أنفسهم..!

فكيف يستقيم سيره — بعد — بين الناس؟.

ومعنى ذلك أن اليهود ثأروا لأنفسهم من الهزيمة التي أدركتهم، وإن كان علماء  
الدين ونقطة الشريعة لم يستكينوا لهذا البلاء، وبذلوا جهوداً كبيرة في فضح هذه  
الإسرائيليات وتخليص لباب الإسلام الحق من تلك المحدثات التي اعترته..

وقريب من نضح اليهودية الماكرة على الإسلام ما روه من أن الفرس لما  
دخلوا الإسلام نقلوا إليه تقاليدهم في معاملة الأسر المالكة عندهم.

فجعلوا الأسرة النبوية موطن قداسة وعصمة، وأحبوا أن تتبوأ في مجتمعهم  
المكانة التي كانت قبلاً لآل ساسان... وبذلك تعكر رواء الإسلام في أذهانهم كما  
يتعكر كوب الماء إذا سقطت فيه قطرة مداد..!

إن الحقيقة العليا في هذا الدين يجب ألا يشوب صفاءها كدر.

وسواء انتصرت أو انهزمت فلا يجوز أن يتطرق إليها زيادة أو نقصان أو  
تحريف.

إن اجتياح (التتار) لبلاد الإسلام وطبها لراية الخلافة في بغداد، وتقتيلها ما  
قتلت من السادة والرعا، إن ذلك المصاب أهون في وقعه وأثره من شيوع مذهب  
المرجئة بين عوام المسلمين وظنهم أن الأعمال ليست ضرورة لصحة الإيمان.

وعندما أنهض الإسلام جماعة الإخوان في مصر كيما ينصفوا مبادئه ويذودوا  
عن حماه تنصّرت وجوه كثيرة، وتمشت حرارة الأمل في أوصال المؤمنين، وتمشت إلى  
جانبا رعدة الخوف في قلوب الفساق والظالمين، وسارت الدعوة تطوى المراحل  
البعيدة وهي تمر مر السحاب .

وشرفها الذي تباهي به الأولين والآخرين أنها تتأثر بصاحب الرسالة العظمى صلوات الله عليه وسلامه، وتقبس من سناه.

ثم جاءت المحنة الكبرى فقتل حسن البنا جهرة لا اغتيالاً، واقتيد خيرة إخوانه إلى المنافي والسجون، وظل الإرهاب المسلط يجرّعهم الغصص ويتوقع منهم الفتنة حتى جاء نصر الله، فانجابت الغمة وعدنا كما كنا أحراراً..

أجل عدنا .. وما في نيتنا أن نبدل من منهاجنا شيئاً ! .. ولا أن نغير من سياستنا إلا ما يُضاعف كراهيتنا للحكام المستبدين! ، ويُبعد شُقة اللقاء بيننا وبينهم أبد الآبدين.

بيد أننا فوجئنا بالواقعة تتسرب إلينا .. وفوجئنا بالدخلاء على الجماعة يُغيّرون سيرها ومنهجها.

ونظرت فإذا أناس لم يُعذّبوا في ذات الله يوماً ينادون طالبين الأمان!!.. نعم إن الرجال الذين لم يدخلوا سجنًا ، ولم يشقّوا في معتقل كانوا أول من رفع راية التسليم ، وقرر أن ينحني مُقبلاً اليد التي قتلت حسن البنا..

كان هؤلاء الجبناء - في حياة حسن البنا - يُقبّلون يده ظهراً وبطناً. فلما ولّى هرعوا إلى القصر الملكي ، يقيدون أسماءهم في سجل التشريفات، ويهادنون أعضاء الحزب السعدي ، وينظرون إلينا شزراً إذا سألناهم مُعاتبين ، أو جادلناهم مُحاسنين..

أرأيت؟ كان شرف الدعوة التي قادها الإخوان المسلمون أنها خطر على الإقطاع الزراعي والافتيات الرأسمالي، والاستبداد السياسي، لأنها صدى الإسلام الصحيح. والإسلام الصحيح لا يبقى حيث تسود وتتوغل هذه المفاسد الشائنة.

غير أن حفنة من الملتحقين بالركب الإسلامي شاءت أن تعكر هذا كله، وأن تجعل حصاد ربع قرن هشيماً تذروه الرياح.

أي أن الإخوان الأصلاء نجحوا في المحنة التي مُحّصت معدنهم ، فلما عزّ على الشيطان أن يزحزحهم قيد أئمة دس عليها من يلوي زمامهم عن الجادة ويجهد عبثاً ليُضلل فقههم للإسلام وجهادهم من أجله ..

ومن ثم ينجح حيث فشل السعديون واليهود والانجليز وغيرهم .وماذا بعد أن يضطرب مسلك الإخوان في نصرة المثل العليا التي كانوا أول من هتف بها، وحدا الشعب إليها...؟.

ومن حقل أن تتساءل : ما الذي عرّض جماعة كبيرة كالإخوان المسلمين لهذا الاضطراب الفادح؟.

ما الذي جعل زمامها يقع في يد هذه القيادة الواهنة ؟ ما الذي عجّل بكيانها إلى المصير الكآبي؟ .

والإجابة على هذه الأسئلة تحتاج إلى شرح طويل ، غير أنني أوجز هنا ما أراه مناسباً لكتابنا :

إن الخلل في الجماعة كان ينذر كلما اتجهت إلى القاعدة ، وكان يكثر كلما اتجهت إلى القمة .

إن الجمهور الطيب كان حسن الإيمان صادق الوجهة ، لكن أجهزته العليا تطرّق إليها أغلب ما في المجتمع المصري من علل ، فلم تتشكل منطلق الإيمان ، ولم تتحرك بدوافعه النقية .

كانت المجموعة من الإخوان تتألف في القرية أو في المدينة ، فيستطيع أي رجل غني أو قوي أن يكون في صدارتها ، وأن يتجاوب معها قليلاً وتتجاوب هي معه كثيراً .

وقد تعرض المركز العام نفسه لهذا الخلل ، فتولى أمانة الجماعة رجل ليست له الصلاحية النفسية أو الفكرية لأي مركز قيادي في دعوة مكافحة ، وكان تأثير هذا الشخص غريباً في تقريب الجماعة من القصر الملكي ، واصطدمت بتيارات شعبية واسعة النفوذ..

ولم تكن للإسلام أدنى فائدة من هذه الخصومات ، بل لقد عادت عليه بضرر شديد .

ولا غرو .. فإن أعيان القرى وأقرباء الباشوات ترتبط أحوالهم بمصالحهم قبل أي شيء آخر .



وينضم إلى هذا الخلل أن الأيام التي اتسعت فيها دائرة الجماعة كان الشعب المصري في جملته قد توزعته الأحزاب الكبرى . والتحقت أعداد هائلة من المحامين والأطباء بها .

فإذا نظرنا إلى من انضم إلى الجماعة من هذه الفئات وجدنا نسبة الكفاية الفنية والخلقية تتذبذب فوق الصفر .

بل إن الإخوان أنفسهم اضطروا في أغلب قضاياهم السياسية . أو فيها كلها إلى توكيل محامين لا ينتسبون إلى جماعتهم !

ومع هذا الفقر المدقع في الكفايات ، فإن سبعة أو ثمانية من الحقوقيين الفاشلين كانوا هم الذين يمسكون زمام الجماعة في عدة مجالات حساسة ، وكذلك الشأن في بقية أنحاء النشاط الأخرى .

وقد بدأ هذا الداء مبكرا من عهد الأستاذ حسن البنا نفسه .

فقد مرت بهذا الرجل العظيم ظروف جعلته يختار معاونين الأوائل له على أساس أن الكفاية العادية أو الضعيفة إذا صاحبها التفاني في الدعوة والإخلاص للقيادة ، فهي أجدر بالحفاوة من الكفاية الخارقة إذا ضعفت علاقتها بشخص القائد .

ولعل السر في هذا المسلك تخوف الرجل من الانشقاقات التي هز كيانه الجماعة ، وتعرضها للتلاشي ، ثم إيمانه المطلق بأن كفايته الضخمة ستكون مدداً دافقاً وراء كل رجل من رجاله المقربين .

وكان حسن البنا من طراز فريد في دأبه ونصبه ، وكانت ثروته الطائلة من المواهب المتعددة تجعله بالفعل المالك الأوحـد لزمام التوجيه والتنفيذ في شئون الجماعة ، فلم يشعر أحد بفراغ الميدان من الرجولات المقتدرة في الصف الأول من جماعة الإخوان المسلمين إلا يوم قُتل حسن البنا في الأربعين من عمره ..

لقد بدا الأقزام على حقيقتهم بعد أن ولى الرجل الذي طالما سد عجزهم ..

وكان في الصفوف التالية من يصلحون بلا ريب لقيادة الجماعة اليتيمة .

ولكن المتحاquدين الضعاف من أعضاء مكتب الإرشاد حلُّوا الأزمة ، — أو

حلَّتْ بأسمائهم الأزمة — بأن استقدمت الجماعة رجلا غريبا عنها ليتولى قيادتها .

وأكد أوقن بأن من وراء هذا الاستقدام أصابع هيئات سرية عالمية أرادت تدويخ النشاط الإسلامي الوليد فتسللت من خلال الثغرات المفتوحة في كيان جماعة هذه حالها وصنعت ما صنعت .

ولقد سمعنا كلاما كثيرا عن انتساب عدد من " الماسون " بينهم الأستاذ **حسن الهضيبي نفسه** لجماعة الإخوان ، ولكني لا أعرف بالضبط كيف استطاعت هذه الهيئات الكافرة بالإسلام أن تخنق جماعة كبيرة على النحو الذي فعلته . وربما كشف المستقبل أسرار هذه المأساة .

وكان الأستاذ حسن البنا نفسه ، وهو يؤلف جماعته في العهد الأول ، يعلم أن الأعيان والوجهاء وطلاب التسلية الاجتماعية الذين يكثرون في هذه التشكيلات لا يصلحون لأوقات الجد .

فألف ما يسمى بالنظام الخاص ، وهو نظام يضم شبانا مدربين على القتال ، كان المفروض من إعدادهم مقاتلة المحتلين الغزاة من إنكليز ويهود .. وقد كان هؤلاء الشبان الأخفياء شرا وبيلا على الجماعة فيما بعد ، فقد قتل بعضهم بعضاً ، وتحولوا إلى أداة تخريب وإرهاب في يد من لا فقه لهم في الإسلام ولا تعويل على إدراكهم للصالح العام .

وقد قال حسن البنا فيهم — قبل أن يموت — إنهم ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين .

ولكنه بعد أن مات وبعد أن أمسك بزمام الدعوة كلها أشخاص آخرون ، نظرنا قذا الموازين كلها تنقلب رأساً على عقب .

كان السيد حسن الهضيبي رجلا ملكي التزعة والوجهة .

فلما خان الملك فاروق الشعب المصري المكافح لإخراج الانجليز ، وأسقط الوزارة التي أعلنت عليهم الحرب وجاء بالسيد حافظ عفيفي باشا على أنقاض الجهاد المطعون في ظهره .. ذهب السيد الهضيبي إلى القصر الملكي مُهنئاً ، وصدرت الأوامر إلى الإخوان كلهم أن يلتزموا الهدوء !!.

أي هدوء ؟ هدوء التسليم بالخيانة ، والإهدار لكفاح الأمة وأمانيتها ؟..

ذاك ما صدرت به الأوامر ، وباسم السمع والطاعة يجب الانقياد له .. وهيهات  
لمثلي أن ينقاد يجب أن ألقى شعاعا على الوضع كله ، ليعرف الإخوان الحيارى أين  
يضعوا أقدامهم .

ولو كان في ذلك التعرض للقتل !! ممن يملكون السلاح ولا يملكون العقل .  
وغلبني السخط على ذلك العمل الشاذ ، ورأيت إنقاذاً لكرامة الإسلام  
فدعوته أن أصور الموقف الذي يجب أن يقفه الإخوان المسلمون فنحن لا نتبع ملكا  
خائناً ، ولا نؤيد سياسة غادرة .

ومن ثم نشرت بجريدة " المصري " في ١٩٥١/١٢/٣١ م كلمة تحت عنوان :

" لن تبلغ أمة هدفها إلا إذا نظمت جبهتها الداخلية "

قلت فيها :

" الإسلام الذي يعمل الإخوان المسلمون في حدوده له توجيهات واضحة عن  
الموقف الحاضر فلأول مرة التقى القانون الشرعي والوضعي على اعتبار أن الانجليز في  
هذا الوادي محاربين لا أمان لهم ولا عهد .

وكان من بشائر الخير أن اتفقت الحكومة والشعب على تحمل هذا ومواجهة  
تبعاته بروح من الإصرار الواجب والكفاح المحمود ، والإسلام لا يظهر هذه الحركة  
فحسب ، بل يؤجج نارها ويرمي بوقودها من الفدائيين والشهداء .

ويجب أن يُعلم أن الإسلام كما يقوم على كلمة التوحيد يقوم كذلك على  
توحيد الكلمة ، ولن تبلغ أمة أهدافها إلا إذا نظفت جبهتها الداخلية من المنتهزين  
والمصطادين في الماء العكر ، فإن الالتواء بعنان الأمة عن غايتها التي اتحدت عليها قد  
يصيب نهضتها بانتكاس وخيم العواقب ، ولذلك وضع الإسلام له أشد العقاب .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أتاكم وأمركم جميع يريد أن يشق  
عصاكم فاضربوه بالسيف كائنا من كان " وفي حدود تعاليم الإسلام السابقة يمكن أن  
تعرف حقيقة السياسة التي لا يتخلى عنها الإخوان المسلمون ، غير ناظرين إلى أحزاب  
أو أشخاص ، ومن الحقائق المقررة في أذهان الإخوان المسلمين جميعا :

١- أنه لا يجوز بقاء أي جندي انجليزي لا في مصر وحدها بل في ربوع العالم الإسلامي كله .

٢- أن الإسلام يسوون في نظرهم بين أخطار الشيوعية الوافدة ، والخلل الاجتماعي القائم ، لأنهم ينادون بالاشتراكية الإسلامية ، وفيها وحدها الإنقاذ مما نعاينه ومما نتوقعه .

٣- ولما كانت مصير طليعة الكتلة الإسلامية التي يدور التراع العالمي على استغلالها ؟! فإن الإخوان يرفضون الارتباط بأية كتلة معتدية وهم يحاربون فقط من يعتدي على أرضهم وذلك ومن البديهي أن الإخوان الداعين إلى تحكيم كتاب الله ليسوا هم الذين يشاركون في الحكم بغير ما أنزل الله ، أي لا يجوز لهم الاشتراك في الوزارات الحزبية.

وقد أدى الإخوان واجبهم في معركة القناة وللأمة أن تعتمد على رجولتهم دائما في رد الأذى ودفع العدوان " .

محمد الغزالي

عضو مكتب الإرشاد العام

ماذا في ذلكم البيان يغضب السيد حسن الهضيبي ؟. لقد ثار وضاق وجاعني في بيتي الأستاذ عبد العزيز كامل والأستاذ خميس حميدة وهما من أعضاء مكتب الإرشاد ليخبراني بأن هذا المسلك الفردي منتهى بي إلى الانسلاخ من الجماعة !! . إن الأوامر صادرة بأن يكون حديث الإخوان في هذه الظروف متناولا موضوعات أخرى .. موضوعات تتفق مع رغبة القصر الملكي طبعاً في ترضية الأمة بإحباط جهادها ووأد نظامها الدستوري ..

ويؤسفني أن تنشر جريدة المصري رداً عليّ باسم المرشد العام أشرف على كتابته سعيد رمضان وسيد قطب وكان الرد خواء من أي شيء واضح حاسم ، إنه رد وكفى ، ومبعث أساي أن الأستاذ قطب ما كان ينتظر منه أن يشارك في هذا العمل ، ولكنه استُدرج وخضع ، ويغفر الله له ، أما سعيد هذا فقد انطلق يخدم سادته خدمة

هائلة ، ويجتهد أن يجعل من الدين أفيونا للشعب الذي ينام ولا يشعر في غفوته إلا بالأحلام ....

كانت البلاد كلها تصحو وتغفو على الأنباء المزعجة الآتية من منطقة القناة ، وعلى ضرورة الإعداد السريع لما قد يتمخض عنه المستقبل ، ولكن المتحدث باسم الإسلام وضع سياسة الكلام في المركز العام للإخوان المسلمين فإذا هي "علل القلوب وأنوعها ! معرفة الله ! تربية النفس للوصول إلى حضرة القدس !".

ووقف في الخراب الحسيس - وهذا تعبير نستعيره من الأستاذ النابه سعيد رمضان - وقف إنسان مسكين يربط عباد الله بالإسلام فيلخص لهم باباً من إحياء العلوم للغزالي ، وآخر من وحي القلم للرافعي مع محفوظات من خطب الإمام الشهيد حسن البنا ، ومنقولات أخرى من جبران خليل جبران وغيره . وذهبنا نستمتع إلى التوجيه الجديد فكان - ومنطقة القناة يسودها الفزع والقصر الملكي يريد إرضاء الانجليز بأي ثمن، والحكومة القائمة لا تدري ما تصنع - كان هذا التوجيه تخويفاً من مداخل الشيطان إلى القلب ، وتعريفاً بالله ، أذكر أنني سمعت فيه هذه الأبيات :

تأمل في نبات الأرض وانظر \*\*\* إلى آثار ما صنع المليك

غصون من لجين ناظرات \*\*\* بأطراف هي الذهب السبيك

على قصب الزبرجد شاهدات \*\*\* بأن الله ليس له شريك

ومع أني لا أقول الشعر إلا أن السخرية غلبتني وأنا أشهد هذه المأساة أو هذه المهزلة متندراً :

أفيضوا في التصوف واخذعونا \*\*\* فهذا ما يُسر به الملوك

وذلك لأن صرف الأذهان والمشاعر عن منطقة القناة وما فيها كان الأمل الأكبر الملك فاروق ورجاله ، إلا أن الدين ما كان يليق أن يُلعب به على هذا النحو. وقد اشمأز جمهور الإخوان من هذه الخطب ، ومشت مجلة الدعوة في طريقها تقاوم وتهاجم الاستعمار الداخلي والخارجي، وجرف الوعي الإسلامي حيل الجبناء ومدورة المخادعين، وأبى أن يستمع للخطباء الذين يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ، ويريدون تسخير الدين في خدمة المستبدين ..

منذا ينكر أن معرفة الله أساس الدين؟ وأن صلاح القلب ملاك الأدب؟ ولكن إذا كنت متدينا وجاءك الغريم يتقاضاك حقه، فما معنى أن تلويه عن غرضه بمحاضرة طويلة في التصوف والزهد؟ إذا كانت للباطل صورة سمجة، أفتظن للحق الذي يُراد به باطل صورة مستحبة؟ .

في بعض الأقطار التي تدين بالإسلام لا تزال نظم الحكم أسوأ ما عرف العالم. فالفرعونية الحاكمة والقارونية الكانزة كلتاهما تنشب مخالبها في عنق الشعب العاني المهيبض... وفي أيام قرية ذهب داعية كبير إلى هذه البلاد، واجتمع الناس حوله يستمعون منه الحكمة وفصل الخطاب...

واجتمع الجياع الحفاة يسمعون صوت الإسلام من الرجل المرموق (!) .. فإذا بمحاضرة تستغرق الساعتين عن.. غزوة الحديبية.

ووقف الخطيب في المحراب الخسيس - ولا بأس من استعارة التعبير مرة أخرى من صاحبه المتصوف الجليل - وقف ليلمق حكام البلد المحروب ويزجي لهم الشئاء ويوزع عليهم البسمات...

وفي هذه المحارب الخسيسة خسر الإسلام معارك ميسورة النجاح لأن الذي يحارب الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي رجل متكبر طائش يعيش في محراب نفسه!!.

أما الذين هادنوا الظلم وساروا في ركب الملوك، وحملت أبدانهم وبطونهم من هدايا القصور السادرة، فهم أهل المحارب الطاهرة...

إننا لم نسكت بداهةً على هذا التحول المريب ، وعندما تأتي ساعة الحساب سنذكر ما قلنا وما قيل لنا ، وسنذكر ما ترك لنا وما أنكر علينا ، ويومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه..

ولستُ براغب الآن في سرد قصة معينة ن ولا اسم معين ، ولستُ بمحدث كذلك عن الخسائر الباهظة التي لحقت الدعوة منذ عامين في ميادين شتى .  
وحسبي أن أنصح الإخوان المسلمين بكلمات موجزة :

إنه لا قيمة لحياة أشخاص أو مماثمتهم، ولا لبقائهم أو ذهابهم إذا ظللتهم أنتم أيها الإخوان أوفياء للدين الذي قمتم على دعوته واستمددتم وجاهتكم عند الله والناس من العمل به والجهاد له .

ودينكم بإزاء الفرد علم وتربية، فاحذروا على أنفسكم الجهال بالإسلام والفساق عن أمر الله، وأيقنوا بأن الله لا يترل نصره على متجر بدينه إذا خلا بجرمة لله سطا عليها.

ودينكم بإزاء المجتمع أخوة، ووحدة. وتلك معان مستغربة في دنيا الإقطاع والاستبداد حيث تظالم الطبقات ودسائس السادة والعبيد، فاحذروا على صفوفكم أذئاب العهد البائد.. احذروا الرجال الذين أذعنوا للعبودية يوم نشرت ظلامها في الآفاق ، ونكصوا على أعقابهم ضائقين يوم بدت طلائع النور الخافت.. لأنهم خفافيش... خفافيش للأسف تزعم أنها وحدها صاحبة الحق في الكلام عن الإسلام.

ودينكم بإزاء الدولة عدالة، سبيلها الحكم بما أنزل الله. والرجل الذي يأبى الحكم بما أنزل الله في خاصة نفسه وفي حدود إخوانه الأقربين لا يتصور منه أن يحكم بما أنزل الله بين الناس، وسيكذبه العالم كله يوم يزعم ذلك. فاحذروا على كيانكم أيها الإخوان هذا التطاول الذي — إذا كره طارد العلماء المجاهدين — وإذا رضي قرب المداهنيين والقاعدين. ثم ادعى بعد ذلك أنه يحكم بما أنزل الله.

انسوا الأشخاص واذكروا دعوتكم على ضوء الإسلام وحده. إن العابثين بحقائق الإسلام الكبرى لهم مطامع لم تنته بعد. ومرة أخرى أقول لكم : إن الإسلام يحتاج إلى الهمم البعيدة والمشاعر الحية النابضة، فاحذروا الرجال الذين سقطت هممتهم وبردت عاطفتهم وفرضوا موات أنفسهم على دين قام من نشأته بحب المحقين وبغض المبطلين .

ذلك ما كتبته منذ عام تحت عنوان : " إنسوا أشخاصنا واذكروا هذا " !! .  
لكن هذا النصح الحار ذهب هدرًا .

إن الحمقى لعنوا أشخاصنا ونسوا هذا ، ثم انطلق الأستاذ حسن الهضيبي يجري بالجماعة جرياً ن بل يعدو بها عدوّاً ، إلى أفجع المصاير .

لست أدري أنسي الإخوان أم تناسوا مواقف هذا " الحسن " مع أركان الفساد القديم؟ .

يوم لقحت الحرب بين الشعب المصري والقصر الملكي شاء المرشد " الموفق " أن يقول : فاروق ملك كريم ، وأن ينحاز بمن معه إليه على ظن أن القصر أقوى جبهة .

ويوم طارت شرارة الكفاح بين الانجليز المعسكرين على ضفاف القناة وبين المجاهدين الناقمين على بقائهم بين ظهرانينا ، شاء المرشد الموفق أن يطفئ هذا الشرر ، وأن يكذبنا حين صحننا : إن دماء المحتلين مستباحة .

ويوم اشتاق هذا الشعب إلى إزالة الأحزاب الحاكمة وتطبيق دستور سنة ١٩٢٣ شاء المرشد الموفق أن يدخل في معركة الدستور خصماً للحرية ، وعوناً للباشوات المتآمرين مع القصر ومع أعداء البلاد .

وباسم السمع والطاعة اقتيد الأغرار إلى مصارعهم .

ألا ليتهم لم يصغوا إليه ، ولم يُخدعوا به .

وما تغني " ليت " ؟ .

﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

هممت - غير مرة - أن أطوي هذا الذي كتبه في السمع والطاعة ، بعد

الأحداث الجسام التي قرعت أنباؤها الآذان ، وأغنت مرارها عن كل تبيان .

لكني آثرت أن أرويهما كما وقعت في إبانها لأمرور :

منها إنصاف الحقيقة العارية ، وذكرها للتاريخ العدل .

فلعل المتأمل فيها بعد انقضائنا يجد فيها معاني لا نُدركها - نحن المعاصرين لها

- .

ومنها قمع الغرور الذي يستولي على أغلب العاملين في البيئات الدينية، فيشتطُّ

بهم بعيداً عن مرضاة الله وعن إقناع العقلاء..



وانظر - رعاك الله - إلى ما رُويَ من أن أتباع زعيم ديني في السودان تهافتوا على تقبيل سلم عربية السكة الحديدية التي سافر فيها..  
وقال الشعراء في تحيته : (أعداء ذاتك عُصبة في النار)!! .  
إن صلف الرؤساء وهوس العوام على هذا النحو جاهلية عمياء، وليست إسلاما قط.

إن كلمة (أَغْمَضَ عَيْنَيْكَ وَاتَّبَعْنِي) لا يمكن أبدا أن يُقرَّها دين يؤمر رسوله بهذا البيان الواضح : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .  
فلنخدم الإسلام بقوة، ولنخدمه بنظام.

أما إشباع نزوات الاستعلاء في هذا، وكبوات الاستخذاء في ذلك، بالكبر هنا، وبالهوان هناك، فأبعد ساحة عنه، ساحة يُهتَف فيها باسم الله ويُفرض فيها العمل للإسلام.

مضت سنون عجاف ، واستمكنت القوى الشريرة من خناق الإسلام ، وغاب في ظلمات السجون ألوف وألوف من الشباب المؤمن بربه، الغيور على دينه ، وخلا الجو للشيطان الرجيم يذرع البلاد شرقاً وغرباً دون قهيب أو خشية... وانقطع الهتاف لله . وانطفأ الحماس للحق ، وتقلَّب في مهاد الذل مَنْ أعلى ولائه للقرآن ونبيه ، واصطلح الإلحاد والشرك على سحق التوحيد ورجاله ، وأمسى الانتماء للإسلام مثلبة تنكس الرؤوس ، وتُبيح الأعراض ، وترخص الحرمات ...!!.

ونظرت فإذا وجه الحياة دميم، وملامح المجتمع منكورة، وأزمة الإيمان طاحنة، وتذكرت قول أم المؤمنين عائشة:

ذهبَ الذينَ يعاشُ في أكنافهم ... وبقيتُ في خَلْفِ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

قلت: إنني ما أحسن الحياة إلا بديني ولديني، فماذا أصنع بإقرار هذه الوحشة السائدة والفتنة العمياء؟؟ .

وتذكرت عويف بن معاوية الفزاري وكان قد زوّج أخته من عيينة بن أسماء  
الفزاري صديقه الحميم، إلا إن عيينة — لغير ما سبب معروف — طلقها، فغضب  
عويف ، وقال: الحرة لا تطلق لغير ما بأس!! وعاش بعد مراغما لعيينة.

ومضت الأيام وأمر الحجاج باعتقال عيينة وحبسه ووضع القيود في يده. فلما  
بلغ الخبر عويفاً هاجت في نفسه ذكريات الود القديم وقال:

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يُحَسُّ رُقَادُ ... مِمَّا شَجَاكَ وَنَامَتِ الْعَوَادُ  
خَبِرْ أَتَانِي عَنْ عُيَيْنَةَ مُوجِعٌ ... كَادَتْ عَلَيْهِ تَصَدَّعُ الْأَكْبَادُ  
بَلَغَ النَّفُوسَ بِلَاؤُهُ فَكَأَنَّا ... مَوْتَى ، وَفِينَا الرُّوحُ وَالْأَجْسَادُ  
لَمَّا أَتَانِي عَنْ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ ... أَمْسَى عَلَيْهِ تَظَاهَرُ الْأَقْيَادُ!!  
نَخَلْتُ لَهُ نَفْسِي النَّصِيحَةَ أَنَّهُ ... عِنْدَ الشَّدَائِدِ تَذْهَبُ الْأَحْقَادُ  
وَذَكَرْتُ أَيُّ فِتْنَى يَسُدُّ مَكَانَهُ ... بِالرُّفْدِ حِينَ تَقَاصِرُ الْأَرْفَادُ ؟  
أَمْ مَنْ يُهَيِّنُ لَنَا كِرَائِمَ مَالِهِ ... وَلَنَا - إِذَا عُدْنَا إِلَيْهِ - مَعَادُ ؟  
ووقفت عند بيت في هذه القصيدة أردده كثيراً، وأظن أن الراوي حذف من

قبله ومن بعده أبياتا تتصل بموضوعه.

في هذا البيت يقول الشاعر:

يَرْجُونَ عَشْرَةَ جَدَّنَا وَلَوْ أَنَّهُمْ ... لَا يَتَّقُونَ بِنَا الْمَكَارِهِ بَادُوا  
وهو يعني خصومه، وخصوم صهره المعتقل الذي تظاهرت عليه القيود.  
يقول: إنهم يتربصون بنا الدوائر، ونحن الذين ندفع عنهم السوء، ولولا بطولتنا  
لبادوا...!!

والواقع أن الأمم قديما وحديثا تعتمد على أصحاب العقائد في رد الحوادث  
السود، فإعلان حرب الاستئصال عليهم لون من الانتحار.

والأخطاء لا تحارب بالخطايا.

ولعن الله من يبني مجده على أشلاء العباد! !.

قال لي صديق: أحننت لماضيك ؟ قلت : حنيني أبداً إلى العدل والمريحة !.

قال : ألم تتناول الهضيبي باللسان الحاد ؟ قلت : غضبت فذكرت أسوأ ما علمت .

ومن حق الرجل أن أقول عنه : إنه لم يسمع إلى قيادة الإخوان ، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه ، وأن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى التزعات والأهواء .

ومن حقه أن يعرف الناس أنه تحمّل بصلافة وبأس كل ما نزل به ، فلم يضرع ولم يتراجع ، وبقي في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان واسع الأمل حتى خرج من السجن ..

الحق يقال .. إن صبره الذي أعز الإيمان ، رفعه في نفسي ، ويغفر الله لنا أجمعين

! ..

\*\*\*\*